المرأة في الأدب الجزائري المعاصر

حتى سنوات قريبة ، كان الرجل الجزائري لا يجرؤ على مناداة زوجته باسمها . واذا توجه اليها بالحديث فهو لا يناديها بغير (يا امرأة) . أما اذا اضطر الى ذكرها أمام رجل كافر فهو لا ينسى أن يضيف الى كلمة «المرأة» التعبير الشعبي (حاشاك) أي « أجلك الله » . ان المعاملة السيئة التي عانت وتعاني منها المرأة الجزائرية تصل قسوتها في بعض المناطق الجزائرية ، بما فيها العاصمة ، الى حد أن الاطفال لا يجرؤون على لفظ كلمة (أمي) خارج البيت ويكتفون بتعويضها بكلمة (المدار) عند الحاجة .

في رواية (قرية الاسفوديل) « La village des asphodèles » لعلي بومهدي يصف لنا الكاتب الوضع السيىء للمرأة داخل العائلة عندما يطلب الكاتب من أبيه يوم رحيله الى أوروبا أن يسمح لأمه بتناول الغداء معهم ، فيجيبه الاب : « ان أمك هي التي لا تريد أن تأكل معي ! » .

وهكذا بينما يجلس الاب ومعه أولاده الذكور حول الطاولة ، فان مكان المرأة هو في المطبخ لتأكل وحدها بقايا الصحون . ستقول الأم لابنها بعد ذلك : « لقد تعودت منذ زمن بعيد أن آكل وحدي لدرجة انني لم أعد قادرة اليوم على ابتلاع اللقمة في حضور والدك » .

هذا المشهد سنجده في رواية (التطليق) « La Repudiation » لرشيد بوجدرة و (النفقة) « La chrysalide » لعائشة لمسين و (القبرات الساذجة) « Les allouettes naives » لآسيا جبار .

وهذه الوضعية لا تزال قائمة في واقع كثير من العائلات الجزائرية حتى اليوم ، حيث تعيش المرأة خارج عالم الرجال الذي تقرر فيه كل التفاصيل التي لا يؤخذ برأيها فيها .

ان هذا الاحتقار الذي تتعرض له المرأة داخل العائلة نفسها يفسر لنا وضعها السيىء داخل المجتمع ، وكذلك تلك الصورة المحطمة التي يقدمها لنا الاديب الجزائري عند حديثه عن المرأة الجزائرية .

وهذا المشكل الذي يعتقد البعض انه لا يخص الا « نصف المجتمع الآخر » هو أبعد من أن يكون كذلك ، ما دام خلف هذا المشكل تتمثل أزمة « المجتمع الرجالي »

أحلام مستغانمي

وذلك البؤس الذي يجره الرجل معه من الطفولة الى الفتوة حتى الرجولة ، دون أن يعرف كيف يجب أن تكون علاقته مع هذا الكائن الغريب الذي هو « المرأة » .

عندما كتب محمد ديب في قصة (رقصة الملك) « La danse du roi » : « لم يكن الاب عندنا غير ذلك الرجل الذي حبلت منه أمنا عرضا » ، كانت هذه الجملة تأكيدا لكلام قاله رضا حوحو لحماره منذ ثلاثين سنة ، عندما سأله هذا الحمار عن المرأة ، فأجاب حوحو : « كن مرتاحا من هذه الناحية ، فلا وجود للمرأة في بلادنا » . وعندما تساءل الحمار متعجبا : « عجبا ! تعيشون بدون نساء ؟ وكيف تتناسلون ؟ » .. طمأنه حوحو قائلا : « قلت لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا .. » .

ولكن هذه الجملة التي جاءت في كتاب محمد ديب لا تحمل هذا المعنى وحده ، فهي تحمل أيضا تعبيرا عن طفولة دمرتها مآسي الأم ، وجعلت الطفل فيها يتساءل عن نوع العلاقة التي يمكن أن تربط أمه بأبيه .

وهذا الموضوع كثيرا ما توقف عنده الكتاب الجزائريون . وهو الذي يشكل المحور الرئيسي لكل كتابات رشيد بوجدرة ومحمد ديب . والكتاب الاخير لمحمد العالي عرعار « الطموح » وكذلك رواية اللازا للطاهر وطار .

في كتابات بوجدرة مثلا نجد صورة طفولة محطمة، مدمرة .. ومدنسة أيضا . ذلك ان كل أوضاع الأم تنعكس على هذا الطفل الذي يتحمل وحده في الظل كل المآسي التي تمر بها أمه .. وهكذا فان زواج أبيه من امرأة ثانية بموافقة مرغمة من أمه جعلت هذا الطفل يتحمل وحده كل المأساة ويثور ضد أمه .. كما يثور ضد أبيه . ويضع كل هواجسه في هدف واحد : كيف يمكنه أن يصبح عشيق زوجة أبيه ؟ وبعدما نجح في ذلك أصبح يريد اغتصاب كل بنات عمه وكل القريبات اللواتي يأتين لزيارتهم بما فيهن أخته من أبيه .. وخالته أيضا !

وبعدما حقق ذلك الطفل معظم هواجسه أصبح اخيرا رجلا . ولكن لينتهي في مصح عقلي . بعد أن دفن أخاه الاكبر الذي مات سكيرا لينسى هو أيضا مأساة أمه .

ان هؤلاء الاطفال الذين يكبرون فجأة دون حب ودون حنان ، داخل عائلة غالبا ما تكون مشتتة ، سيجرون خلفهم الى الابد صورة تلك الأم المهزومة والتي تتعلق بهم كآخر أمل لها في الحياة .. وهؤلاء الاطفال سيجدون أنفسهم ذات يوم كبطل « الطموح » او أبطال محمد ديب أمام استحالة بناء علاقة زوجية طبيعية ما دامت تلك الأم تشدهم اليها بمأساتها ، وما داموا عاجزين عن قطع حبل السرة الذي يربطهم بالأم ويجعلهم غير قادرين على اكتشاف المرأة ـ الزوجة .

ولكن كيف يمكن لرجل أن يفارق اما لا يعرفها جيدا ليعيش مع امرأة لا يعرفها أبدا ؟

ان هذا الوضع يشرح لنا الغموض القائم في علاقات الامومة والعلاقات الزوجية داخل الادب الجزائري . فاذا كانت صورة الزوجة غالبا ما تكون باهتة لاسباب اجتماعية نفسية وأدبية معقدة ، فان صورة الام التي من المفروض أن تكون أوضح هي أيضا غارقة في الغموض والتناقضات .

ان أم عمر في « البيت الكبير » لمحمد ديب هي امرأة قاسية قوية الشخصية ، عصبية وذات سلطة . وهي لا تشبه في شيء الأم الخاضعة والمطيعة التي يقدمها لنا رشيد بو جدرة في كتاباته . وهذان النوعان من الامهات لا يشبهون نوع الأم عند مولود فرعون أو مولود معمري . ويصبح الشبه أبعد عندما يتعلق الامر بالأم عند جان عمروش الذي تظل عنده كائنا مقدسا ، بينما تصبح عند كاتب ياسين جزءا من الوطن وتاريخه ، لذلك فصورتها قابلة لكل التناقضات والاحتمالات .

وان شرح هذه الظاهرة يتعدى الانتاج الادبي للكتاب ليدخل في حياتهم الشخصية ونوع العلاقة التي كانت تربطهم بأمهم ، فلقد كان لكل هذا دور في تحديد نوعية الأم التي سيقدمها لنا الكاتب فيما بعد .

ويمكننا ان نقول اجمالا ان صورة الأم في الادب الجزائري ، تتراوح بين التقديس والتدنيس . واذا كنا هنا لن نتوقف عند تقديس الأم لانه أمر يكاد يكون طبيعيا ومنطقيا عند البعض ، فان صورة هذه الأم المدنسة لا بد أن تسترعي اهتمامنا . ولضيق المجال سنكتفي بتقديم نموذج صغير عن هذه الصورة في كتاب « التطليق » لرشيد بوجدرة ، أولا لخصوصية صورة الأم في هذا الكتاب ، وثانيا لان مؤرخي الادب في أوروبا يعتبرون هذا الكتاب الذي صدر سنة ١٩٦٩ أهم حدث أدبي عرفته الجزائر منذ ظهور « نجمة » لكاتب ياسين سنة ١٩٥٦ .

ان أول شيء يلفت النظر في هذا الكتاب هو الجو الجنسي الذي يغرقك فيه الكاتب منذ أول صفحة ، فارضا عليك صورا ومفردات جنسية ، ان كانت في نظر الكاتب جزءا من الواقع ، فهي في نظر أي قارىء عادي بذاءة لا يمكن أن ينحدر اليها كاتب طبيعي . يكفي أن نقول في هذا المجال ان القصة تحمل ست حالات شذوذ جنسي ، وخمس حالات اغتصاب ، وثلاث حالات عهر .. أما عدد المرات التي ذكر فيها الكاتب جسد المرأة بصراحة ووقاحة لا توصف فلا يمكن أن تعد . ونحن هنا لا نناقش الكاتب الا على مستوى اللغة . وفي هذا المجال يمكن أن نقول ان الروائية آسيا جبار استطاعت في رواياتها الرائعة « القبرات الساذجة » أن تنقل لنا عدة مرات تفاصيل العلاقة الجنسية بين نفيسة ورشيد وبين غيرهما من الابطال دون اباحية ، وكذلك دون حياء مزيف . ولقد منع أسلوبها الانثوي الانيق القارىء من الاصطدام بالصور التي كانت تنقلها اليه ، بينما يبدو وكأن بوجدرة كان يبحث عن هذا الاصطدام بل ويتعمده أساسا في كل كتاباته .. بما اننا نجد أنفسنا في كتابه الثاني « ضربة الشمس » مباشرة ومنذ الصفحة الاولى في مرحاض أمام وضع جنسي غريب يغتصب فيه بطل القصة (وهو في مصح عقلي) احدى الممرضات بطلب منها !..

واذا عدنا الى كتابه الاول « التطليق » فأكثر ما يصدمنا فيه هو هذه « الشجاعة » التي تمتع بها الكاتب ليستبيح عدة مرات جسد أمه ، ناقلا لنا تارة تفاصيل علاقتها الجنسية مع والده ... وتارة أخرى تفاصيل هذا الجسد نفسه ... وأكثر من هذا ، فانه في فصل آخر يتحدث عن أمه بهذه الطريقة : « انها امرأة مطلقة ، لا تصل الى النشوة الا بواسطة يدها ... أو بمساعدة نانا قطتها !! » .

ان مثل هذا الكلام وحده كاف ليجعل من الكتاب حدثا أدبيا ، خاصة اذا عرفنا ان الكاتب لا يكتب الا عن سيرة ذاتية . والحقيقة انه كان يمكن أن نعتبر هذه الجملة دفاعا عن وضع المرأة المطلقة وشرحا لأزمتها الجنسية ضمن بقية الازمات التي يجرها عليها الطلاق ، وحينذاك سنعجب بهذه الالتفاتة الانسانية لامرأة قلما حكم عليها من وجهة انسانية ، ولكن جو الكتاب العام ، كما سبق أن قلنا ، يجعل مثل هذا الاحتمال بعيدا .

اذا كانت أزمة البطل في هذه الرواية هي المعاملة السيئة التي تتعرض لها أمه من طرف أبيه ، فان عيب هذه القصة ، كما هو عيب معظم القصص التي عالجت هذا الموضوع ، الهروب أمام الواقع وعدم مساعدة الأم على تكوين شخصية جديدة أو على مواجهة الاب مواجهة صريحة . وربما كان محمد العالي عرعار هو القاص الوحيد الذي وقف بطله في « الطموح » منذ الطفولة

وحتى النهاية الى جانب أمه وحاول معها أن يبحث كل الحلول التي يمكن أن تحررها من سلطة الاب . ولقد كان في التحاقهما معا بصفوف جيش التحرير حرية كافحا من أجلها معا كل بطريقته واستحقاها معا أيضا .

ان هذا الموقف يكاد يكون نادرا في روايات المغرب العربي بصورة عامة . ونحن نكاد لا نجده الا في رواية القاص المغربي ادريس شرايبي (أمي الحضارة) « La civilisation ma mère » عندما يساعد الابن أمه على اكتشاف الحضارة والتخلص من حياتها القديمة . وينتج عن ذلك انقلاب كامل في حياة الاثنين ، وهكذا ... بينما تنتهي قصص مولود معمري ورشيد بوجدرة بالهروب الى أوروبا أو بالانتحار ، كما في « ضربة شمس » لبوجدرة .. أو بالجنون كما في « التطليق » للكاتب نفسه ، فان بطل شرايبي سيظل مدهوشا أمام التغيرات التي طرأت على حياته منذ أن أصبح بينه وبين أمه تلك العلاقة الجديدة .

ان الموقف نفسه يتكرر في رواية عائشة لمسين « النفقة » . ولكن الكاتبة أرادت أن تكون (فائزة) هي التي تساعد زوجة أبيها على التطور بدل أن يكون ذلك الدور موكولا لابنها مولود .

واذا كان الرجل في الادب الجزائري يظل عاجزا عن اتخاذ موقف واضح من الأم ، فان ضياعه يكون أكبر عندما يتعلق الامر ببقية النساء . فهو لا يرى أبدا كيف يجب أن يتعامل مع زوجته أو عشيقته أو زميلته في العمل أو رفيقته في النضال ...

ولهذا نجد الادب الجزائري محشوا بالتصرفات الناطئة تجاه المرأة . فكثيرا ما يتعامل الرجل مع زوجته وكأنها أخته كما في (التلميذ والدرس) « L'élève et la leçon » لمالك حداد ، أو في « La collire oubliée » لمولود معمري . ثم يعود فيخلط بينها وبين أمه كما في « الطموح » للعالي . أو تصبح عنده مجاهدة قبل أن تكون زوجة كما في (رصيف الازهار لا يجيب) « Le quai aux fleurs ne répond plus » لمالك حداد . أو في (الطلاسم) « Tal'sman » لمحمد ديب . أو تصبح عنده مجرد خادمة كما في معظم الروايات .

أما اذا كانت هذه المرأة رفيقة في النضال ، فهو يحدث أن يعتبرها ملكا خاصا به وليس للثورة ، فيحرسها ويغار عليها كما في مسرحية (التراب) للدكتور أبو العيد دودو ، أو يسمح لنفسه باختلاس لحظات جنسية على حساب المعركة كما في (الطموح) لعرعار ، ويكاد يمنعها حتى من معالجة المرضى ... وفي « سماء سماقية » « Ciel de porphyre » لعائشة لمسين تتطوع حورية « لخدمة » المجاهدين مجانا وتضع جسدها تحت تصرف الثورة حتى يوم الاستقلال !..

أما اذا كانت تلك المرأة زميلة في العمل ... أو تحت مسؤولية أحد كبار الموظفين ، فالرجل يعتبرها هنا تحت تصرفه الشخصي ، وهو لا يتورع عن اغتصاب عشرات الفتيات كما جاء على لسان كمال في (الشمس تشرق على الجميع) عندما أخبر صديقه ان أحد مديري المعامل قد اغتصب عشر فتيات يشتغلن عنده في المصنع ... وفي القصة نفسها يغتصب ناظر الثانوية عددا لا يقل عن ذلك من فتيات الثانوية ..

وهذا الاستغلال نفسه تتعرض له المرأة من طرف الرجل المسؤول عنها ... كلما سمحت الفرصة بذلك ، مثلما نجد في كثير من قصص الطاهر وطار « كالطاحونة » و « رقصات الاسى » و « الضابط والزنجية » .

وهكذا فان ضعف الرجل أمام المرأة ، وشعوره بالحاجة اليها ، دون ادراك الطريق الذي يجب أن يسلكه للوصول الى حاجته ، يدفعه الى أن يكون عنيفا معها حتى لا يبدو مرتبكا أمامها . ولقد شرح محمد ديب هذه الظاهرة عندما صرح في احدى مقابلاته :

« ان المأساة هي تحول الرجل أمام المرأة الى صنم أبكم معطوب من الناحية العاطفية . انه ينظر اليها ككائن يهدده ويسحره أيضا ، وكتعويض عن شعوره هذا فهو ينقلب الى مظاهر الرجولة العدائية .. والواقع ان هذا الرجل « مريض » ، والا فكيف يمكن لهذا الرجل أن يتصرف مع كائن غريب لم يحدث في يوم أن تعرف عليه عن قرب ؟ » .

ان مشكل انقطاع الحوار بين الجنسين بل وانقطاع التعارف بينهما يشكل أهم مشكل اجتماعي تقف خلفه كل همومنا النفسية والاجتماعية والادبية .

ويمكن لهذا الموضوع وحده أن يملأ أكثر من كتاب. ذلك انه لم يوجد كاتب جزائري واحد لم يتوقف عند هذا الموضوع أو يلمح اليه .

في أول كتاب لمولود معمري (الهضبة المنسية) الذي صدر سنة ١٩٥٢ وردت هذه الجملة :

« ان عالم الرجال وعالم النساء في تقاليدنا هما كالشمس والقمر ، قد يريان بعضهما كل يوم ولكنهما لا يلتقيان » .

وفي كتاب (عيد الميلاد) « Lanniver saire » لمولود فرعون نجد ضمن مذكرات شخصية كتبها سنة ١٩٤٤ (ونشرت سنة ١٩٧٢) هذه الحقيقة نفسها عندما يقول :

« من الخامسة عشرة الى سن العشرين يمثل الاولاد والبنات نوعين من البشر يعيشان جنبا الى جنب ولكنهما مرغمان على التجاهل المتبادل . ليس بينهما أية علاقة ، فهما ينظران الى بعضهما دون أن يتحدث أحدهما للآخر ، ويشتهيان بعضهما دون أن يلمس أحدهما الآخر » .

ان هذا الموضوع توقف عنده كتاب العربية .. قبل كتاب الفرنسية منذ الربع الاول لهذا القرن ، كما هو الامر عند الشاعر محمد صالح حشاش سنة ١٩٢٥ ، وكذلك رمضان حمود في الفترة نفسها في كتابه (بذور الحياة) . ثم جاء محمود العابد الجيلالي في سنة ١٩٣٥ ليضع في مجموعته القصصية التي نشرت في تلك السنة بمجلة « الشهاب » عدة مقاطع تلمح علنا الى ضرورة خلق لقاء بين جنسين يعيشان في غربة تامة وعدم انتظار فرصة الزواج لوضع غريبين وجها لوجه دون مراعاة لاختلاف مزاجهما وطباعهما .

اربعون سنة بعد هذا الكلام لا زال هذا المشكل نفسه قائما ، ان هو لم يتأزم اكثر مع اندلاع الحرب التحريرية التي جعلت علاقة الرجل بالمرأة تتعقد أكثر بعد أن وضعت الثورة أمامه تلك المرأة التي حجبت عنه قرونا ، فارضة عليه هذه المرة مواصلة كبته الجنسي .

واذا كان بعض الرجال قد تغلبت عليهم مسؤولياتهم ولم ينقادوا الى شهواتهم ، فان كثيرا من الذين وجدوا انفسهم لاول مرة أمام امرأة من لحم ودم لم يستطيعوا مقاومة غرائزهم واغتصبوا تلك المرأة .. والادب الجزائري لا يخلو من هذه الحالات (التي ذكرنا بعضها سابقا) .

ان أحداث الثورة آنذاك شغلت الناس عن الاهتمام بتلك اللحظة الحاسمة التي تم فيها أول لقاء حر بين جنسين باعدت بينهما قرون من التقاليد .

ولكننا اليوم وبعد مرور ست عشرة سنة على تاريخ استقلالنا يمكننا أن نرى نتائج تلك التجربة من خلال الادب الجزائري الذي لم يتغير فيه شيء بالنسبة لهذا الموضوع . لا بل تعقدت فيه المأساة أكثر بعدما أصبح الرجل اليوم يملك الوقت الكافي لادراك مأزقه النفسي والتاريخي .. وان ادق تعبير في هذا المجال هو ما كتبه الشعراء الشباب باللغة الفرنسية والذين يشكلون تيارا خاصا داخل الادب الجزائري ، تيارا تتجسد فيه معاناة الشباب الجزائري ، أمام ارث اجتماعي ثقيل تسد أمام جيلنا كل جسور الفرح .. والتوازن .

في قصيدة لبشير الحاج علي (أحلام في الفوضى) جاءت في ديوانه (لتبق الفرحة) ، الذي ظهر سنة ١٩٦٥ ، يمكننا أن نقرأ هذا المقطع :

أحلم بخطيبين متحررين من الافكار السرية
أحلم بزوجين منسجمين بتفاهم
أحلم برجال متزنين في حضور المرأة
أحلم بامرأة منشرحة في حضور الرجل .

وتعود هذه الفكرة نفسها عند يوسف سبتي في ديوانه (الامل اليائس) :

أتمنى أن أنام الى جانبك بلا قلق
أعانق جسدك بلا ذل قديم
(.....)
أتمنى أن تنزع يداك المسامير التي غرست في .

ان هذه الغربة التي يعاني منها شبابنا تجاه المرأة .. وكل العقد والافكار المسبقة التي امتلأت بها رؤوس الرجال .. هي التي جعلت المعلم الشاب في (ريح الجنوب) لبن هدومة يقع في غرام نفيسة وهو لم يرها ولم يعرفها بل عشقها من خلال أخيها الصغير الذي يدرس عنده في الصف . وفي القصة نفسها نرى الراعي يفسر طلب نفيسة له بارسال خطاب الى العاصمة على انه دعوة علنية للجنس ، فلا يتورع في الليلة نفسها من التسلل حتى غرفتها وهو يعتقد ان كل شيء قد أصبح ممكنا . وهكذا يتساوى المثقف بالجاهل عندما يتعلق الامر بالمرأة ...

والمهم في هذا الموضوع ليس ما كتب في الادب الجزائري عن ظاهرة « انقطاع الحوار بين الجنسين » انما الاهم هو تأثير هذه الظاهرة على الادب الجزائري نفسه ، وخاصة على الرواية المكتوبة باللغة العربية ، والتي كان غياب المرأة أحد أسباب تخلفها الزمني والنوعي .

ان جهل الرجل الجزائري لعالم المرأة وارتباط هذه المرأة في ذهن بعض الكتاب المعربين بثالوث مقدس هو (الدين ، اللغة والمرأة) جعل هذه المرأة كثيرا ما تبدو في خيالهم كما في كتاباتهم شيئا خرافيا أسطوريا .. مما جعلهم يعجزون عن تقديم صورة واقعية لهذه المرأة. وهم أكثر من ذلك عاجزون حتى في القصة على اقامة علاقة طبيعية معها ، حيث نجد حوار الرجل مع المرأة مثلا حوارا مصطنعا ومبالغا فيه ، وحيث يتطرف الرجل في أحكامه وأوصافه تجاه المرأة بطريقة تفضح ارتباكه أمامها . فهو اما مادح لها حتى التقديس ، أو شاتم لها حتى التدنيس . وأصدق نموذج على ذلك رواية الدكتور عبد المالك مرتاض (نار ونور) التي ضخم فيها الكاتب الاحداث والاشخاص بطريقة جعلت تسمية هذا الانتاج رواية تجاوزا .

والا كيف يمكن تصور بطلة تتحدث لابن عمها بهذه الطريقة :

« أريد أن أكون جزائرية ، تبعث الامل في نفوس الشباب ، وتنشر الحب في قلوب المواطنين والناس جميعا . أريد أن أكون جزائرية تغني للحياة أفراحها ، وتستقبل الصباح باسمة (....) .

اني أنا الجزائرية التي اذا اشتهيت عففت ، واذا أهنت استأسدت ، واذا أكرمت ودعت ، واذا غضبت كظمت غيظي ، واذا ثرت ملكت نفسي ، واذا جعت لم آكل بثديي ، واذا امتحنت صنت عرضي ..

أي فتاة في الدنيا لها سمعتي : دفاع عن وطن . وصون لشرف ، ورعاية لزوج ، وبرّ بوالد ، وحنـــو على ولد » .

ان الدكتور مرتاض الذي اعتقد عن حسن نيـة ، انـــه يخدم المرأة الجزائرية بحشده كـل هذه الصور والتعبيرات النادرة ، نسي في غمرة حماسه ان معظم الصفات التي خص بها المرأة الجزائرية ـ دون غيرها من نساء العالم ، هي عيوب لن تقبل بها أية امرأة عاقـلة في العالم ...

والا ما معنى مثلا « اذا غضبت كظمت غيظي ، واذا ثرت ملكت نفسي .. » ؟ الا ان الدكتور مرتاض ، يمجد خضوع المرأة وذلها .. ويمجد فيها هذا الصبر الـذي يجعلها امرأة مـــن ثلج .. لا تثور ، ولا تغضب ، ولا تشتهـي ؟!

وفي الطرف الآخر نجد مثلا في أول مجموعـة قصصية للطاهر وطار (دخان من قلبي) نماذج مـــن البطلات المتحررات تطرف الكاتب في وصفهن أيضـا ، خاصة انه حاول أن ينقل لنا جـوا متحررا ، ربما كان جديدا عليه ، مما جعل كثيرا من تصرفات بطـلاته غير طبيعي ، ومبالغا فيه ، بينما نجده فـي قصة (نوّة) مثلا ، والصادرة في الكتاب نفسه ، أكثر ادراكا وتحسسا للمرأة ، لانه كان يكتب عن عالم يعرفه جيدا وعـن امرأة ريفية احتك بها .

ونستطيع هنا أن نصل الى ملاحظة هامة وهي ان الكتاب الجزائريين عاجزون في رواياتهم عن اقامة علاقة مع امرأة مثقفة أو متحررة . فكثيرا ما يعجز الكاتب عن السيطرة على بطلته فيستنجد بخيالـه ، وهنا تحصـل المبالغات والمواقف المزيفة .

في رواية « الطموح » مثلا نجد النقاش الذي ورط فيه محمد العالي عرعار زوجة الاستاذ التي أراد أن تكون مثقفة ومطلعة حوارا مصطنعا لم ينقل لنا غير سطحيـة هذه المرأة وفضولها أمام ما يقوله هذا التلميذ (النابغة) . وعندما ينتقل القاص الى زميلة فـي الجامعة (طيبة) ويصف علاقته بها فهو يفاجئنا بمواقف وتصرفات لـم نعهدها من فتاة جامعية مهما كان مستـوى تحررها . فالبطلة هنا مثلا تمسك « خليفة من يده وتقوده خـارج الجامعة ولا تتورع عن استضافته في بيتها ليتناول الغداء مع أهلها . وعندما يسألها الاستاذ في احدى المرات عن أوراقها فهي تجيبه بوقاحـــة انها تتقاسم مع خليفـة كل شيء :

« ان لدينا المحفظة نفسها . أوراقي هي أوراقه . وأوراقه هي أوراقي » .

وعندما ينبهها الاستاذ لمساوىء هذه الطريقـة ، وقد يمكن الا يجلس أحدهما مع الآخر أو يتأخر عـــن الدرس مثلا ، فماذا يفعل الثاني آنذاك ؟.. تجيبه طيبة باللهجه نفسها :

« فليكن الاستاذ المعيد مطمئنا . سيبحث كل واحد منا عن الآخر . الى ان يجده ... ولن يفعل شيئا قبـل هـذا » ..

ان هذه اللهجة وهذه التصرفات لم أعهدها لـدى فتيـاتنا الجامعيات ... الا اذا تغيرت الجامعة منـذ سنتين ...

وهذه الصورة المهتزة والمضطربة نفسها نجدها في قصة (الشمس تشرق على الجميع) لاسماعيل عموقات، حيث يعيش البطل بين زميلتين في الثانوية ، احداهمـا عشيقة للناظر ، والثانية يحبها ويشك في علاقتهـا بالناظر نفسه . وهنا يرتبك الكـاتب وهو ينقل لنـا صوره هاتين الفتاتين ويجهد نفسه ليجد حوارا طبيعيا يمكن ان يدور بين البطل وبينهما ، بينما يأخذ نبرة ثابتة عندما يحول حديثه الى أخته وأمه اللتين تشتغلان ليتمكن من مواصلة دراسته . ولا نعجب أن تكون هذه المقاطع بالذات هي أجمل فقرات الكتاب وأكثرها تأثيرا لاننـا نعرف انها جزءا من واقع تعيشه كثير من زوجـات الشهداء وبناتهن .

ان هذه الامثلة الكثيرة تعطي من ناحية ثانية قيمة اخرى لرواية (ريح الجنوب) لابن هدوقة التي تعتبـر اول رواية جزائرية (باللغة العربية) عالجت مشكـلة الفتاة الجزائرية المثقفـة بواقعية نادرة ، وأوضحت الاصطدام الفكري بين هذه الفتاة وجذورهـا الريفية . ان ابن هدوقة في هذه الرواية وضع المرأة في اطـار جديد لم تعرفه الرواية المكتوبة باللغة العربية قبله عندما طرح مشكلة (نفيسة) على المستوى نفسه الذي طرحت به الثورة الزراعية . وليس صدفه أن يكون سادة الارض هم أيضا سادة المرأة . ويوضح لنا الكاتب ان الرجـل أمام الملكيتين يختار الارض ولا يتردد في التضحية بالمرأة من أجل الحفاظ على أرضه . وليس صدفة أيضا أن تعي نفيسة وضعها كفتاة ضعيفة ومستغلة في الوقت الـذي يكتشف فيه راعي أبيها الاستغلال والاهانة التي تتعرض لهـا . وتلتقي ثورة البطلين عنـــدما يصادف هروب نفيسة من بيت أهلها مع تخلي الراعي عن وظيفته .

ان هذا المحور الثلاثي الذي بنيت عليه القصة جعل العلاقة بين الرجل والمرأة والارض علاقة عضوية لا يمكن فيها لاي طرف أن يحـــل مشكلته بمعزل عن الطرفيـن الآخريـن .

وهكذا مرة أخرى تتدخـــل الصدفة أو منطقيـة الاشياء لتجعل الراعي هو المنقذ لنفيسة عندما لدغتهـــا الافعى وهي تحاول الهروب ، وهو أيضا الذي سيحميها ويخفيها في بيته موحدا بذلك نضال المرأة والفـــلاح المحتكر ضد سلطة الوالد واقطاع المالك .

واذا فشلت نفيسة في محاولة هروبها في المرتين فذلك لانها لم تع ـ رغم ثقافتها ـ جدلية هذه العلاقة . وهي لم تحاول مرة واحدة ادراك السبب الذي جعل أباها يضحي باخنها منذ سنوات وبها اليوم . ان نفيسة لا علاقة لها بالارض اطلاقا . وهي لا تتحدث عن قريتها الا لتذكر عيوبها . وهي بالتالي لا يهمها أن يكون أبوها مالكا ... أو الراعي محتكرا ، أو تكون الارض في يد ابيها أو في يد غيره . كل ما تريده نفيسة هو حل مشكلتها الشخصية . أما (صالح) فهو في نظرها (راع قذر ...) .

أن غياب الوعي الطبقي لدى نفيسة وعدم ادراكها لمعطيات الثورة التي تستطيع وحدها حل مشاكل الجميع جعل نفيسة في نظر الكاتب لا تستحق حتى أن تنجح في محاولة هروبها .

« لان هروب نفيسة ليس هو الحل » كما صرح بذلك ابن هدوقه في احدى المقابلات .

الى جانب هذه الوظيفة الجديدة التي منحها ابن هدوقة للمرأة . نجد ان اهم حدث آخر في هذا الكتاب هو دخول جسد المراة لاول مرة الادب الجزائري المعرب . فنفيسة هي أول فتاة جزائرية يعترف لها كاتب (معرب) بحق امتلاك جسد دون أن يحاول تدنيس هذا الجسد أو استغلاله لاثارة شهوات قارىء يعوض عن جوعه الجنسي بمثل هذه المطالعات . ان جسد المرأة الجزائرية قبل نفيسة لم يكن جسدا انسانيا يحمل الشهوة والرغبة والثورة ، بل كان دائما عالما يحرم الدخول اليه والتعرض لمشاكله . بينما يجوز ويحبذ التغزل فيه . ولهذا يحدث أن نجده حاضرا في الشعر . ولكنه غائب وخيالي في القصة .

واذا كان الفضل للقاص الكبير الطاهر وطار في ادخال جسد المرأة الى القصة الجزائرية ، فان هذا الدخول كان دائما على أطراف الاصابع ، بل كثيرا ما أساء وطار الى هذا الجسد بطريقة ربما لم يقصد اليها ، ولكنها رسخت في ذهن القارىء فكرة (المرأة السلعة) . فالطاهر وطار منذ كتابه الاول (دخان من قلبي) الذي نجد فيه عدة نماذج لنساء بعضهن عاهرات وبعضهن « متحررات » ، وحتى كتاباته الاخيرة ، قلما نجد فيها التفاتة شجاعة وايجابية كتلك التي تعود أن يقفها في مجالات أخرى .. لم يجرؤ على دخولها غيره ...

واذا كان محتوى بعض القصص ايجابيا كما في « رقصات الاسى » حيث ترفض راقصة أن تحصل على جائزة للرقص بخيانة زوجها مع منظم المسابقة ، فان وطار في القصة نفسها يسرد لنا حكاية أربع نساء عشقهن (الكامل) « القصاب » ومزقن ثيابهن أمامه شهوة واعجابا ، مما جعل الاعراس تتحول الى مآتم بتدخل أخ لفتاة أو زوجها . وفي « رمانة » يروي لنا وطار قصة فتاة دفعها فقرها الى العهر . وتطول القصة وتتشعب . وتنتقي هذه الفتاة مع أحد « الثوار » اثناء حرب التحرير فيعطف عليها ويعلمها القراءة والكتابة ، وبعض المهن البسيطة . لينقذها من مأساتها ، وتتحمس رمانه وتعمل مع الفدائي لمساعدة الثورة ، وعندما يستشهد ذلك المجاهد فجاة برمانة « جالسة على كرسي وثير ، عارية الصدر ، لا يغطي باقي جسمها سوى قميص نوم حريري املس شفاف » وهي تتمتم : « هذا التاجر التافه اشتراني . وضعني هنا في منزله كما يضع اية تحفة ! » .

هكذا تنتهي قصة رمانة بعد ما يقارب المائة صفحة من المآسي والعذاب المتتالي . فكان وطار يحاول اقناعنا ان المرأة خلقت عاهرة ، فلا الثورة ولا التعليم ينفعان في تغييرها . وتتأكد هذه الصورة في قصته (الشاعرة الصغيرة والرسام الكبير) عندما يصف لنا فتاة «مثقفة» تقضي وقتها متنقلة بين المراقص والحانات محرضة الرجال على تناول الخمر صباحا « حتى يظلوا جامدي العواطف مع المرأة ويقدروا على مغازلتها ومعاشرتها » . وهي لا تنتظر أن يغازلها الرجال . فهي تاخذ دائما المبادرة في عرض جسدها وكذلك شعرها لمن شاء ..

وفي هذه القصة يبدو العهر الجنسي لدى المرأة مرتبطا بالعهر الادبي عندما تكون هذه المرأة شاعرة . وهكذا فان المثقفة عند وطار تصبح أقل شانا حتى من الجارية . فحتى الثقافة التي هي سلاح المرأة الاول ... تتحول في يد بطلات وطار الى سلعة تماما كاجسادهن . ونجد الصورة المسطحة والمبالغ فيها أيضا في قصة « زوجة الشاعر » .

عندما يحاول وطار بعد ذلك في قصته الشهيرة « الزنجية والضابط » أن يحرر المرأة من سيطرة الضابط ليجعلها عبدة في يدي الصحفي الذي تصر هي هذه المرة على معاشرته ، لا تتورع الزنجية « المثقفة » و « الشاعرة » عن تقبيل الصحفي واحتضانه في السيارة أمام الراكبين . وتنتهي القصة والزنجية « فوق أريكة على السرير ، في ثياب نوم بيضاء ، ترتل مغمضة العينين والصحفي عند قدميها يتربع على سجادة فوق الارض وينهمك في الكتابة » ..

رغم الرمز الذي حاول وطار التلميح اليه فانه سيصعب عليه اقناع أي قارىء ان حل هذا اللغز كان يتطلب وجود الزنجية في منتصف الليل ... في غرفة الصحفي في أحد الفنادق ... وجلوسها بثياب النوم على السرير ... لتقرأ له شعرا !

* * ●

واذا أردنا أن نلخص اهتمامات الادب الجزائري المكتوب باللغة العربية بالمرأة فاننا يمكن ان نقول

ـ بدهشة ـ ان أهم فترة طرحت فيهـــا مشاكل المرأة بجدية وبجرأة هي الفترة ما بين ١٩٢٥ الى ١٩٥٥ .

فلقد كان رمضان حمود ومحمــد صالح خيشاش ومحمد السنوسي في بداية هذا القرن أجرا من شعــراء العربية المعاصرين عندما طالبوا بنزع الحجاب عن المرأة ومنحها حق متابعة التعليم ... وتحريرها من عبوديـة الرجل لها باسم الدين بينما نجد مكان المرأة في القصيدة الجزائرية بعدهم فارغا لا يحمل أية قضية ولا حتــى صورة ايجابية أو واقعية للمرأة . ذلك ان الشاعر لا يزيد على اعادة كليشيهات قديمة تشكل رصيـــد المرأة في الشعر العربي . وعندما يحاول ربط المرأة بالثورة فــان القصيدة كثيرا ما تأتي ساذجة وسطحية لا تحرك فــي القارىء أية عاطفة الا في حالات نادرة .. مثـــل بعض القصائد للدكتور أبو القاسم سعد الله ، أو قصيـــدة « نداء الضمير » للدكتور صالح خرفي . واذا عرفنـا ازدواجية بعض شعرائنا الذين يعيشون بين هواجسهـم الجنسية ومظاهرهم التقدمية ، فاننا ندرك السبب الذي جعل الشعر الجزائري المكتوب بالعربية هو أضعف نوع أدبي اهتم بالمرأة (وهو أيضا آخر نوع أدبي يأتي من حيث النوعية بالقياس لباقي الانواع الادبية) . وقد تكـون نجاة هذا الشعر ، على يد بعض الاصوات الشابة ، التي تجرأت على ادخـــال مضامين جديدة الى القصيـده الجزائرية .. ولكن حتى هذه الاصوات القليلة تبقــى متاخرة وتبدو غير واقعية اذا قيست بما يكتبه الشباب باللغة الفرنسية .. وربما يعود العيب الاول للغمـوض الذي يتصور بعض الشباب أنه أهم ميزة يمكن أن تتمتع بها قصائدهم ، مما يجعلهم يبتعدون عن طرح المواضيـع ومواجهتها بصراحة .. بينما يذهب شعراء الفرنسية الى أهدافهم دون لف ولا دوران .. وبمفردات كثيرا ما تكون مأخوذة من شوارع القصبة ومن أحيائنا الشعبيـــة ، فتأتي قصائدهم أقرب الى القارىء ، وأصـدق تجـاه القضايا التي تعالجها ، ما عدا المآخـــذ اللغوي عليهـا بالطبـع !

واذا توقفنا قليلا عند النثر فاننا نجد قضية المرأة قد خمدت وانتهت مع انتهاء (البصائر) واستشهـــاد رضا حوحو سنة ١٩٥٥ ، بعد أن عرفت أوجها على أيام الامام ابن باديس والكتاب الذين عاصروه .

وهكذا فان ظهور (ريح الجنوب) سنة ١٩٧٢ يشكل أول دخول جدي للمــرأة في الادب الجزائري المعرب . وأثناء فترة الصمت هذه بين الخمسينات والسبعينات . كان الادب المغربي الذي صادف ظهوره مع انتهاء المرحلة الاولى من الادب الجزائري هو وحـده سيد المـوقف . والحقيقة ان هذا الادب الذي يحاول البعض ـ عن جهل ـ الحط من قيمته والتشكيك في نواياه . قد قدم للادب الجزائري خدمة لا تقدر بنقله للعـالم هموم الانســـان الجزائري ـ ثورته وأحلامه ـ وفتح أبواب العالمية امام أدبنا الذي كان يمكن بدونه أن يبقى مغلقا لزمن طويل .

وهكذا فان الادب المفرنس هو الذي قدم لنا أصدق صورة عن المرأة الجزائرية وهو الذي تابع جميع تطوراتها، عبر المراحل التاريخية الحديثة . واذا كـــان الكاتب المفرنس قد عانى مثل اخيـه المعرب مــن كل الضغوط والرواسب النفسية والاجتماعية ، فلقـــد عرف كيف يجند حساسيته وموهبته في شرح أبعاد مأساة المـرأة والرجل في المجتمع الجزائري . ولقد ساعده على ذلك تحرره من القيد اللغوي ، ودخوله لغة مباحة . ويطول الحديث لو أردنا أن نقيم الخدمات التي قدمتها كـــل رواية . للقاصة الكبيرة آسيا جبار مثلا .. أو ما قدمه مالك حداد في كل كتاباته ـ دون استثناء ـ للمــرأة الجزائرية ، وهو الذي حمل دائما المرأة الجزائرية فــي قلبه وأعماله ، والــــذي ترك لها دستورا يحميها مــن السقوط .. في الحياة التقليدية أو الهروب الى الحياة الغربية في قصته الرائعة (التلميذ والدرس) .

ولا ننسى مولود فرعون ، ذلك العبقري الذي لف نحت برنسه كل معاناة الانسان الجزائري ، وظل لآخـر لحظات حياته يكتب من أجل المرأة .. والرجل الجديد .

أو كاتب ياسين الذي كان أول كاتب ربط المـرأة بالتاريخ في (الاجداد يزدادون ضراوة) وقـــام بأجرأ محاوله لينتزعها من مخالب الاجداد وليجعلها ترمـــي حليتها (وليس فقط حجابها) وتتبع الثوار .

أن الادب الجزائري لا يخلو من المواقف المشرفـــة والشجاعة التي لا بد أن تكون مفخرتنا جميعا . واذا كان الادب الجزائري المكتوب بالفرنسية سباقا حتى الآن في طرح موضوع المرأة طرحا موضوعيا وصريحـــا ، فاننا لا نشك لحظة واحدة بأن مستقبل الادب فـــي الجزائر مرتبط أشد الارتباط بالقدرة عـــلى خلق وتطوير أدب عربي حديث تقدمي يكون منفتحا على كل قضايا المجتمع والانسان الجزائري وعلى رأسها قضية المرأة ، وبـذلك يتخلص هذا الادب من عقده ونواقصه السابقة (*) .

باريس

(*) ألقيت هذه الدراسة مؤخرا فـــي الندوة الاسبوعية التـي يعقدها البروفيسور جاك بيرك فـي « الكوليج دو فرانس » ، وهي تشكل فصلا من أطروحة الدكتوراه التي تعدها الكاتبـة في جامعة السوربون تحت اشراف الاستاذ نفسه . وستصـدر هذه الدراسة في وقت لاحق باللغتين العربية والفرنسية .